يناير 2025

POLICY BRIEF

البعد الأمازيغي في الحضارة المغربية بإفريقيا جنوب الصحراء

مبارك آيت عدي

" الثقافة هي ما يبقى بعد أن تنسى
كل ما تعلمته في المدرسة "

البيرت إنشتاين

POLICY CENTER FOR THE NEW SOUTH

شكلت التجارة العابرة للصحراء إلى عهد قريب، فرصة للمغرب ولإفريقيا جنوب الصحراء ليكتشف كل طرف ثقافة وحضارة الآخر. حظي هذا التواصل المبكر باهتمام دراسات كثيرة، داخل القارة الإفريقية وخارجها؛ تجمعها خاصية في حاجة إلى إعادة النظر، تتجلى في اختزال هذه الدراسات للمؤثرات الحضارية المغربية فيما وراء الصحراء عبر ترسيخ البعد العربي، بما في ذلك اللغة العربية والدين الإسلامي والمذهب المالكي وقراءة القرآن الكريم برواية ورش؛ مقابل ذلك تم إغفال مؤثرات حضارية أخرى لا تقل أهمية، يعد تثمينها ودراستها طريقا أمثل للتقارب والتعايش السلمي بين الشعوب. تندرج ضمن هذه القضايا التي لم تنل بعد ما تستحق من الاهتمام الخبرات التي نقلها المغاربة إلى بلاد السودان، والمتعلقة بالفلاحة والمعمار والحرف وعادات الأكل والشرب واللباس والحلي... والتي تصنف، بدورها، ضمن وسائل التقارب والتفاهم والحوار بين الثقافات

يسعى هذا الموضوع إلى تتبع نماذج من المؤثرات السالفة الذكر التي نقلها المغاربة إلى ما يصطلح عليه تاريخيا ببلاد السودان أو السودان الغربي؛ خصوصا منها المؤثرات التي حملها الأمازيغ إلى هذه الجهات. ركزنا على البعد الأمازيغي في هذه المؤثرات، باعتبار القبائل والجماعات والأشخاص الأمازيغ يصنفون ضمن ممن كان لهم قصب السبق في ذلك، بحكم استقرارهم المبكر بالصحراء الكبرى التي تعتبر قنطرة مرور البضائع والأفكار من المغرب إلى أعماق إفريقيا، وبحكم عامل الجوار، حيث كانت هذه القبائل متاخمة لبلاد السودان، الشيء الذي أهلها للاستقرار في القرى والمدن السودانية، وبالتالي المساهمة في تسيير حكم الإمبراطوريات التي تعاقبت على حكم هذا البلد.

سنقارب هذا الموضوع اعتمادا على ما تيسر من المعلومات التي جاءت عرضا في بعض المصادر الجغرافية العربية، مثل تلك التي خلفها البكري وابن حوقل وابن بطوطة والحسن الوزان، وتلك التي وردت في بعض كتب التاريخ، مثل تاريخ الفتاش لمحمود كعت، وتاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي؛ لكن تبقى معلومات الرحالة الأوروبيين المنتمين للقرن التاسع عشر، الذين اجتازوا الصحراء الكبرى في اتجاه بلاد السودان، هي الأساس المتين الذي تقوم عليه كثير من معلوماتنا، لما تزخر به من إفادات حضارية هامة، لم تنتبه إليها المصادر الكلاسيكية، والتي لم تستهويها سوى القضايا السياسية والعسكرية والدينية أكثر من غيرها.

أمام قلة المعلومات حول هذا الموضوع وتشتت ما هو موجود حولها بين ثنايا المصادر المنتمية لفترات متباعدة، سوف لن نتقيد في تتبع البصمات المغربية في حضارة بلاد السودان على الزمن القصير، وإنما على الفترة الممتدة من العصر الوسيط إلى الفترة الحديثة، خصوصا منها، القرن التاسع عشر، والذي يعد فترة غنية من حيث المعلومات حول موضوعنا وفرتها بالخصوص الرحلات الأوروبية التي وصلت إلى بلاد السودان في هذا القرن، واهتمت بجوانب حضارية لم تستهوي غيرها من الكتابات التاريخية والجغرافية.

ا – عناصر أمازيغية ساهمت في نقل حضارة المغرب إلى أعماق إفريقيا :

ليس من السهل الحديث عن دور الأمازيغ في التلاقح الحضاري بين المغرب وباقي دول إفريقيا لوحدهم، فجل المغاربة انخرطوا في ذلك بأشكال متفاوتة منذ وقت مبكر؛ لهذا فتخصيص الأمازيغ بالذكر لا ينفي دور المكونات الأخرى المشكلة للهوية المغربية في ذلك؛ خصصنا هؤلاء بالذكر، كما أشرنا، لما كان لهم من السبق في الوصول إلى بلاد السودان، وفي نقل الأفكار والتقنيات المغربية ما بين ضفتي الصحراء.

تأتي القبائل الصنهاجية (لمتونة وكدالة ومسوفة وبني وارث وبني فشتال ولمطة وجزولة) في صدارة هذه القبائل؛ تمتد حدودها داخل الصحراء على « مسيرة سبعة أشهر عرضا، من نول لمطة إلى القيروان من بلاد إفريقية، وهي ما بين بلاد البربر وبلاد السودان « (إبن أبي زرع،1964:120). انفتحت على بلاد السودان منذ وقت مبكر، نظرا لطبيعة مجالها الذي لا يشجع على الزراعة والاستقرار، وإنما على التنقل والتجارة؛ الشيء الذي أكسبها «المعرفة بأوضاع البر وأشكاله والهداية فيه والإدلال على مياهه بالصفة والمذاكرة، ولهم الحس الذي لا يدانيهم في الدلالة إلا من قاربهم وسعى سعيهم»(ابن حوقل،1997:93).

ساهم في هذا الربط الحضاري، إلى جانب قبائل صنهاجة السالفة الذكر، جماعات أمازيغية أخرى لا تقل أهمية، تنتمي لمجالات مختلفة من المغرب، منها: قبائل تكنة وتجكانت وايت عطا وجزولة ولمتونة والشياظمة وحاحة

وتادلة وماسّة وشتوكة وأولاد جرار والمنابهة. خصص العلامة محمد المختار السوسي بالذكر وبالاسم عددا من أفراد هذه القبائل ومنهم: الحسين بن عبد اللّه الجشتيمي، الذي تلقى الشيخ المختار الكنتي وأصبح من مريده، وسيدي أحمد الجشتيمي، امتهن التجارة في بلاد السودان، وتوفي هناك، ثم محمد الأقاوي حفيد سيدي يحي دفين تنبكت (Tombouktou) ومحمد بن داود الجزولي التاملي، المعروف بأحوزي، انتقل إلى تغازة (Tegaza) سنة 1091 هـ، والحاج سعيد الرسموكي الذي عاد من بلاد السودان عام 1766م، بعد أن ترك أولاده مقامه في الاشتغال بالتجارة بين الحوض (El Haoud) والسودان (المختار السوسي،1960: 162). وقبل المختار السوسي، ذكر ابن بطوطة شخصيات أخرى تنتمي لهذه القبائل، كان لهم حضور قوي ببلاد السودان مثل: القاضي أبا محمد يندنكن المسوفي، قاضي ولاتا(Walata)، والذي صُنف من الفقهاء الحجاج، ثم محمد بن الفقيه الجزولي، أمير جماعة البيضان بالسودان والقاضي أبو إبراهيم الخطيب ومحمد المدرس والشيخ سعيد بن علي، ثم محمد الفلالي، إمام مسجد البيضان بمدينة كوكيا(Koukia)، والذين وجدهم ابن بطوطة، لما قدِم إلى مدينة تكدا(Tegada): «قد ذهبوا للصلح بين سلطان تكدا وسلطان التكرور (ابن بطوطة،1997: 276). كما يندرج ضمن هؤلاء العلماء أيضا شخصيات أمازيغية أخرى، مثل أبو القاسم التواتي الذي جاء إلى مدينة تنبكت مع جماعة من علماء و شرفاء تافلالت، وشيَّد بيتا قرب المسجد الاعظم بتنبكت، كان يستقبل فيه الطلبة، كما كان أسكيا الحاج محمد، أحد ملوك إمبراطورية سنغاي (Songhay) يصلي خلفه، ويطلب منه الدعاء (عبد الرحمن السعدي، 1898: 60).

لقد انصهر كثير من هؤلاء في المجتمع السوداني بأشكال مختلفة، مثل تولية الخطط الدينية وممارسة التجارة وكذا امتهان بعض الحرف؛ لكن تبقى عملية المصاهرة والزواج من أهم هذه الوسائل، حيث ذكر الحسن الوزان أن أحد ملوك سنغاي زوَّج اثنتان من بناته لتاجرين وفدا على بلاده، كما تزوج الكثير من تجار البربر والعرب من نساء سودانيات واستقروا بشكل نهائي ببلادهن(حسن الوزان، 1983: 111). نفس الأمر أثار انتباه ابن الخطيب، حيث أشار إلى أن أبناء الشاعر والمهندس الأندلسي إبراهيم الساحلي تزوج من السودانيات، (ابن الخطيب، 1974: 348). كما ذكر المقري في هذا الشأن أيضا أن آل المقري الذين اشتهروا بتجارتهم ببلاد السودان، قد تزوجوا من السودانيات، « فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط و الديار و تزوجوا النساء و استو لدوا الإماء «(المقري، 1986: 608). كما زوَّج سلطان إمبراطورية سنغاي، أسكيا داوود إحدى بناته لقائد توارق امغشارن أندنسن كي. (عبد الرحمن السعدي، 1898: 109)؛ الشيء الذي شكل مناسبة لترسيخ الحضارة المغربية في هذه الأقطار، بل لاستفادة ملوك السودان من خبرة المغاربة السياسية والإدارية، حيث أوْكَلوا إليهم وظائف كثيرة، مثل كُتَّاب الرسائل والحجاب وأصحاب المشورة و أهل الدائرة والأمناء، كما ساعدوهم في أمور السلم والحرب وفي حفظ أسرارهم، وفي الصلح بين قبائل السودان

ما من شك أن الشخصيات المذكورة لا تشكل سوى نزر قليل من المغاربة الذين عبروا الصحراء إلى بلاد السودان، والذين تراوح عددهم في قافلة واحدة ما بين ألف وثلاثة آلاف رجل، والذين لم يسجل التاريخ من بينهم سوى العلماء والقضاة والأئمة، دون غيرهم من عامة التجار والصناع والحرفيين، الذين استوطنوا مدن السودان الغربي، واختلطوا وانصهروا مع السكان المحليين، اختلاط مجاورة ومعايشة ومعاملة ومصاهرة، زاد من تعميقه موقف السلطات الحاكمة في الوحدات السياسية السودانية، والتي استعانت بالمغاربة في إدارة شئون مملكتهم. لقد أوردت كثير من المصادر، خصوصا منها مصادر القرن التاسع عشر أشارات مهمة حول التحولات التي أحدثها هؤلاء في مختلف جوانب الحياة في بلاد السودان، بما في ذلك إدخال مواد زراعية وتقنيات فلاحية جديدة أدت إلى توسيع المجال الزراعي، كما أدخلوا حرفا جديدة وطوروا أخرى محلية وطوروا التجارة عن طريق إدخال وسائل تعامل جديدة. ذلك ما سنتناوله من خلال دراسة التأثيرات الزراعية والحرفية والتجارية

II – مؤثرات حضارية نقلها الأمازيغ من المغرب إلى بلاد السودان:

كما أشرنا في السابق، لا تمدنا المصادر المغربية والسودانية الكلاسيكية بمعلومات مهمة حول المؤثرات الحضارية السلمية التي نقلها المغاربة إلى بلاد السودان، حتى الإشارات التي جاءت فيها حول هذا الموضوع، فإنها لا تتجاوز معلومات قليلة ومقتضبة، لا تسمح بالبحث العمودي فيه، الشيء الذي جعل تنويع المصادر أمرا ضروريا. أمام هذا الوضع، تُشكِّل كتب الرحلات الأوروبية التي زار أصحابها بلاد السودان خلال القرن التاسع عشر الميلادي، أهم المصادر المباشرة الزاخرة بنصوص كثيرة حول موضوعنا، إذ تتضمن إشارات مهمة ومفصلة، تستمد أهميتها من خلال كون أصحابها انتقلوا مباشرة إلى أعماق إفريقيا وجمعوا معلوماتهم عن قرب، من خلال المعاينة والمشاهدة المباشرة،

الشيء الذي لا توفره المصادر التقليدية إذ لم يزر الكثير من أصحابها بلاد السودان ولم يشاهدوا المؤثرات المدروسة عن قرب، حيث كان ينقل بعضهم عن بعض الأخبار بدون تمحيص

لقد تعددت المؤثرات المغربية التي أثارت انتباه أصحاب تلك الرحلات بأعماق إفريقيا، نذكر منها: تلك المتعلقة بالزراعة والمعمار وعادات الطبخ وأشكال الفرجة والإدارة والزراعة وفنون الطبخ وتنظيم الأسواق وإدخال مكاييل وموازين جديدة والعادات المرتبطة بالأعياد والمناسبات الدينية، مثل ليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر)، وعيد الفطر والأضحى وكثير من مناحي الحياة

لا يسع المجال لتتبع مختلف هذه المؤثرات، لهذا نكتفي بالحديث عند النماذج الآتية:

1 – إدخال مزروعات جديدة:

يطرح التعرف على المزروعات التي نقلها المغاربة إلى السودان عبر التاريخ صعوبات جمة، ترتبط بعدم اهتمام المصادر التقليدية بمثل هذه الجوانب، والاكتفاء بالمبادلات التجارية والعلاقات السياسية والعسكرية، أمام هذا الوضع، تبقى كتب الرحلات الأوروبية، هي التي تقدم معلومات مهمة حول هذا الجانب، رغم أن معلومات كثير منها ترجع إلى القرن التاسع عشر الميلادي فقط؛ حسب هذه المصادر، يأتي القمح على رأس هذه المواد؛ فقد ذكر الرحالة الفرنسي، كراف (Graffe) أن هؤلاء المغاربة زرعوا هذه المادة على ضفاف نهر النيجر، لكن لا يستهلكها السكان المحليين وانما المغاربة وبعض التجار الأجانب، فقط (Graffe,A,1909.308). كما جاء عند دبوي يكوبا (Dupuis Yacouba) أن سكان مدينة تنبكت يستهلكون القمح بكثرة ويصنعون منه مأكولات كثيرة شبيهة بالمأكولات المغربية (Dupuis, Y, 1912:120). كما حمل هؤلاء إلى هذا البلد مواد زراعية أخرى لا تقل اهمية، مثل: البصل والثوم واللفت والفلفل وأنواعا أخرى والقرع الصغير والبقول (الغربي محمد، 1982: 483)

لم تقتر بصمات لمغاربة ببلاد السودان على إدخال مزروعات جديدة إلى هذا البلد، بل وسعوا وطوروا مزروعات محلية كثيرة، مثل مادة القطن، فبعد أن كانت زراعة محدودة في عهد سنغاي، اجتهد المغاربة في توسيعها حتى أصبحت من أكبر المواد الزراعية في البلاد، يتم صباغتها بعد جنيها بألوان مختلفة، منها الزرقاء والخضراء والسوداء، خاصة في مدينة جِني المالية التي ازدهرت فيها هذه الزراعة(Monteil, CH,1932: 11). كما تندرج ضمن هذه الزراعات مواد أخرى، مثل قصب السكر؛ يزرع خاصة في الجهات المرتفعة القريبة من نهر النيجر، ذات تساقطات متوسطة،. كانت زراعته من اختصاص العناصر الأندلسية المهاجرة من غرناطة، لكن يبدو أن هذه المادة لم تنجح بشكل كبير بهذا البلد ولهذا بقيت تتصدر قائمة الواردات السودانية حتى في القرن السابع عشر الميلادي(الغربي محمد، 1982: 486). دون أن ننسى مادة التبغ: فبالرغم من الضجة الكبرى التي أقيمت حول تحريمها أو تحليلها، فإنها تعد من أهم المواد التي اعتنى المغاربة بزراعتها داخل السودان، كما تعد من أكبر صادراتهم نحو المغرب، تزرع في مدينة بمب وكاغ وشرق تنبكت. ولقد آنتقلت منها كميات كبيرة إلى المغرب حملها السودانيون الذين رافقوا الفيلة التي وصلت إلى المغرب من بلاد السودان خلال القرن السادس عشر، غير أن زراعة هذه المادة قد خضعت لحظر شديدة من قبل الفقهاء لهذا أصبحت تزرع بالخصوص في الجهات التي لاتصل إليها المراقبة (Oskar Linz , 1887: 168).

يضاف إلى هذه المزروعات مزروعات أخرى لها قيمة عظيمة في المجالات التجارية والصناعية داخل السودان وخارجه منها الكروم والتين وزراعة الكتان التي أشار زبادية إلى أنها لم تلق روَاجا داخل السودان، هذا بالإضافة إلى الحمضيات التي جُلبت أغراسها من المغرب وأعطت ثمارا مهمة (زبادية عبد، القادر1992 , 111 :)

نعتقد أن النماذج التي أوردناها أعلاه أعطتنا صورة عن المزروعات التي نقلها المغاربة إلى السودان والتي طوروها، الشيء الذي كان له الأثر الكبير على مستوى عيش السكان وعلى الحياة اليومية لديهم إلى حدود القرن التاسع عشر، بحيث وُصفت تغذية السكان بأنها جيدة وأنها تتكون من الأرز والكسكس مع الملح والسمك.

2 – الأطعمة و فنون الطبخ:

لم تقتصر المؤثرات المدروسة على مجال دون آخر، وإنما شملت أغلب مجالات الحياة اليومية، مثل الأطعمة والأشربة وفنون الطبخ؛ فبعدما كان طعام سكان هذا البلد بسيطا من حيث المواد المستعملة ومن حيث طريقة الإعداد، أضاف إليه المغاربة ألوانا جديدة، وأطباقا مشهورة، شكلت فيما بعد تراثا مشتركا، يعكس التلاقح العميق بين الطرفين

تناولت مصادر ودراسات كثيرة هذه الفنون، وميزت فيها بين الأطباق المحلية، طورها المغاربة بهذا البلد وتلك التي تشكل جديدا، لم تشهدها المنطقة من قبل، وتندرج ضمن هذه الأطباق الأخيرة مأكولات وأشربة كثيرة مثل: طبق الكسكس، عرف إلى اليوم انتشارا واسعا في مختلف مدن وقرى بلاد السودان؛ كان في بدايته طبق علية القوم، قبل أن يصبح طبقا شعبيا، يتناوله الجميع؛ يحضّر اعتمادا على مزروعات كثيرة، مثل: القمح المستورد من المغرب؛ كما يسقى ويروى بمرق يضم أنواعا من البهارات المغربية مثل « رأس الحانوت». تنضاف إلى مادة الكسكس مأكولات أخرى لا تقل أهمية منها: أشكال مختلفة من الخبز، تحضر من خلال دقيق الأرز المدهون بسمن البقر والماعز، يستهلك حسب شارل مونتاي مع ما يسمى «بالدواز». يقدم خصوصا في المناسبات والحفلات الكبرى (Monteil, CH, 174: 1934). كما تندرج ضمن هذه الأطباق أيضا ما يسمى الزميطة بالمغربية، تحضر من عجين القمح الممزوج بالعسل واللوز. وكذا ما يسمى» بتاكلا»، « العصيدة»؛ كانت تستهلك من طرف الفئات الغنية والفقيرة معا؛ دون أن ننسى أشكالا مختلفة من الحساء أو الحريرة والحلويات ، يحمل كثير منها أسماء مغربية أمازيغية أو عربية، مثل الفتات والحرشة، تُقلى بالبيض والعسل والسمسم، تحضر عادة خلال شهر رمضان، كما هو الأمر بالمغرب

ليس من السهل تعداد كل هذه المؤثرات المرتبطة بالأطعمة والأشربة ، فهي كثيرة ومتنوعة، منها: ألوانا كثيرة من الفواكه والمنسمات مثل، النعناع والبقول والحوامض، و البطيخ الأحمر والأصفر وكميات مهمة من الثمار، لازال الكثير منها يحتفظ باسمه الأمازيغي، مثل بوفقوس وبوسكري، ومنها مشروب الشاي أو الأتاي بالسكر وبالنعناع، هذا الأخير الذي كان يهيأ بنفس الطقوس المعروفة بالمغرب، كمل يقدم من خلال أواني مستوردة من هذا البلد. ومثل مادة السكر التي لا يطيب الشاي بدونها، كانت تستورد هي الأخرى من بلاد سوس بالمغرب، قبل أن يطور المغاربة زراعتها على ضفاف نهر النيجر. هذا بالإضافة إلى أشكال وألوان متعددة من الحلويات والفطائر(محمد الغربي، 1982: 486)

لم يقتصر المغاربة على إدخال الأطعمة والأشربة إلى هذه الجهات من إفريقيا الغربية، بل أحدثوا تحولات مهمة وتقاليد جديدة مست الواجبات اليومية ومواعيد الأكل، إذ أصبح السكان يتناولون ثلاث واجبات في اليوم، كما هو الشأن بالمغرب، منها وجبة الفطور، التي تضم الخبز الطري والزبد والعسل، والشاي بالنعناع، ووجبة الغذاء الرئيسية التي تضم الوانا مختلفة من الأطعمة والمشروبات واللحوم المختلفة. هذا بالإضافة إلى وجبة العشاء، بعدما كان أهل البلد في السابق يقتصرون على تناول بعض الفطائر مع الشاي ليلا ولا يتناولون شيئا بعد ذلك.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من المصادر، بما فيها تلك المنتمية للقرن التاسع عشر الميلادي، قد أكدت على أن أغلب فنون الطبخ ببلاد السودان كانت مستوردة من المغرب، مثل اسكار لانز Oskar Lenz الذي أشار إلى أن الأطعمة والأشربة تحمل كثيرا من المؤثرات المغربية ، ومثل المترجم الاسباني كريستوبال كونزاليس (Cristbal Gonzalez) الذي أورد بدوره أن الأطعمة المشهورة في تنبكت ومحيطها لا تخلو من بصمات المطعم المغربي، نفس الشي أكد عليه محمد الغربي حيث قال:» ومما يلفت النظر حقا التنوع الواضح في أصناف الحلويات التي عرفها بلاد السودان الغربي ، حيث ليس من الصعب مقارنة كل نوع منها بما كان يوجد في الأندلس والمغرب»(محمد الغربي. 1982.613).

3 – فن المعمار:

يتصدر أغلب هذه المؤثرات، حيث لا نجد أية مدينة تاريخية بإفريقيا جنوب الصحراء، إلا وتذكِّر زائرها بمعمار المغرب المشهور في الصحراء و في مراكش وفاس. نفس الأمر بالنسبة لأدوات البناء المعروفة بهذه الاطار والتي انتقل جلها من المغرب. الشيء الذي جعل الفن المغربي المرتبط بالمعمار مدرسة قائمة الذات حرص أهل السودان على

الاقتداء به في بناء منشئاتهم في كثير من مدنهم، مثل تنبكت والجني (Djenné) و كاو(Gao)، المدن التي بنيت منازلها على طراز دُور بلاد البربر. الأمر الذي أكدته الكثير من المصادر، مثل عبد الرحمان السعدي الذي أشار إلى أن دُور سكان بلاد السودان قبل احتكاكهم بقبائل المصامدة، كانت عبارة عن زريبات، ولمَّا توافد عليهم هؤلاء تحولت دُورهم « من الزريبات إلى الصناصن، ثم إلى بناء الحيوط، أسوارا قصارا جدا» . نفس المصدر ذكر أن بلاد السودان كله لم تأتيه العمارة إلا من المغرب، لا في الديانات ولا في المعاملات (عبد الرحمن السعدي،1898: 21).

علاوة على ما جاء في المصادر العربية، أثارت هذه المؤثرات انتباه كثير من الرحالة الأوروبيين، مثل دوبوي يكوبا (Dupuis Yakouba) الذي ذكر أن كثيرا من سكان بلاد السودان شيدوا مجموعة من الدور على طراز منازل واحات جنوب المغرب، حيث تتميز بجمالية فائقة، تفوق المنازل المحلية الهشة؛ كما زينت أبوابها ونوافذها بالمسامير والنقوش والشبابيك المحفورة والتي تعطي مثلا عن منازل وأبواب المغرب(Dupuis Yakouba, 1912: 11). نفس الملاحظة سجلها شارل مونتاي (Charles Monteil) ، إذ أشار بدوره إلى أن وصول المغاربة إلى هذا البلد، شكل منعطفا جديدا في فنه المعماري، حيث شيد هؤلاء الوافدون منازل وقصورا على شكل قصور ودور مراكش وسجلماسة؛ زينت بنقوش وزخارف على الجدران والأخشاب (Monteil, CH,1932: 30). كما ورد حديثا عند الطيب الوزاني في مقال له تحت عنوان : «مقومات التفاعل الحضاري بين دول إفريقيا والمغرب الأقصى»، أن سلاطين بلاد السودان حاكوا المغاربة في إضفاء الرونق والجمال على قصورهم ومساجدهم، حيث أصبح المبدعون المغاربة من مهرة الصناع الفاسيين الذين شيَّعوا الفن المغربي في حواضر إفريقيا، حيث لازالت النقوش الفاسية والشمسيات الزجاجية قائمة هناك، تشهد على عبقرية الإبداع المغربي (الوزاني الطيب، 1998: 491).

تشهد على بصمات الفنانين المعماريين المغاربة بهذه الجهات في مجال المعمار، منشئات كثيرة، منها : مساجد مدينة تنبكت التي بنيت بطريقة جديدة، استلهمت الفن المعماري المغربي، المتميز بالقباب المرتفعة المربعة والمزخرفة (الحسن الوزان.1983. 540). ومنها دور مدينة الجني بمالي الحالية، التي أصبحت خلال القرن السابع عشر تتميز بكثير من الخصائص الحضارية المغربية، مثل الاعتناء بالساحات الخضراء والمواظبة على كنس الشوارع والأزقة كل صباح، خصوصا يوم الجمعة، وطلاء واجهات البيوت والدكاكين بالصباغة الفاتحة (محمد الغربي، 1982: 582).

من مميزات هذه الدُّور أيضا، أنها كانت تزين بكثير من التحف، المستوردة من المغرب، منها حتى تُحف قصور بعض السلاطين ، ذلك ما يُفهم عند عبد الرحمن السعدي، صاحب تاريخ السودان، والذي أشار إلى أنه بعد أن قام الثائر ابن أبي محلي على السلطان مولاي زيدان السعدي بمدينة مراكش، «احتل هذه المدينة ونهب قصر البديع الذي كان أجمل قصور العالم وباع بعض أثاثه لتجار السودان، فجاء كثير منها إلى مدينة تنبكتو برسم التجارة، فتبايعها الناس بينهم وتملكوها، ودخل منها متاع إلى دار أولاد سيدي محمود لينظروا زينتها ويتأملوا جمالها وحسن تراكيبها فكان ذلك عظيم الاعتبار لأولي الأبصار»(عبد الرحمن السعدي،1898: 206)

لم يكتف المغاربة ببناء منشئات معمارية جديدة ببلدان الاستقبال، بل ساهموا أيضا في إدخال كثير من أدوات البناء إليه مثل الجير الطبيعي والأخشاب المخروطة لصنع الأبواب والشبابيك والمسامير الدقيقة، المستعملة في الأبواب والشبابيك والأقفال الحديدية المتقنة وقوالب الكلس والزجاج ، حيث كانت تستورد من كثير من مدن المغرب مثل تافيلالت ومراكش

4 – الحرف اليدوية:

أجمعت أغلب الدراسات المهتمة بالعلاقات المغربية الإفريقية على أن المغاربة لم يشكلوا فئة مغلقة داخل بلاد السودان على مر العصور، بل انصهروا بأشكال مختلفة في المجتمع، منها الزواج، وامتهان حرف محلية، مثل الصناعات النحاسية والحديدية والقطنية والصوفية. تأتي الحرف أو الصناعات الجلدية في مقدمة هده الحرف، كانت حسب دوبوي يكوبا (Dupuis Ykouba) حكرا على جل المغاربة في مدينة تنبكت.، ينتجون من خلالها أشكالا مختلفة من الأحدية والبلاغي والنعال والمحافظ وأغمدة السيوف وأغلفة الكتب ، نفس الرحالة تتبع مختلف المراحل التي كانت تمر منها هذه الصناعة، والأدوات المستعملة داخلها، كما وقف عند جودتها، وخلُص إلى أن البلاغي التي يصنعها المغاربة المقيمون في بلاد السودان، تتميز بجمالية كبيرة، خاصة بلاغي النساء، التي تزيَّن بألوان مختلفة، حمراء وخضراء وصفراء ، و بألوان مختلفة من الحرير، إما قليل أو كثير، حسب مستوى كل مشتر. (Dupuis Ykouba ,1921: :

62) ، كمـا جـاء عنـد القبطـان دوفانتيـن (Capitaine Pfonton)، أن سـكان مـدن جنـي وتنبكـت وكاغـو تخصصـوا فـي أحديـة شـبيهة بأحاديـة المغاربـة، تصنـع مـن جلـد الماعـز إلـى جانـب الصناعـات الجلديـة، نقـل المغاربـة إلـى هـذا البلـد حرفـا كثيـرة، لهـا نفـس مميـزات مثيلتهـا فـي سـوس ومراكـش وتافلالـت، منهـا الحـرف الحديديـة ، التـي تعتبـر حسـب الرحالـة اوسـكار لانـز (Oskar Linz) حكـرا علـى الصنـاع البربـر، (155 :1887 , Oskar Linz) ، ثـم السـيوف والفـؤوس والسـكاكين وصناعـة النسـيج والتـي كانـت أدواتهـا شـبيهة بمثيلتهـا فـي فـاس ومراكـش. لقـد كانـت هـذه الحرفـة تـزود الأسـواق السـودانية بمجموعـة مـن الألبسـة شـبيهة بألبسـة سـكان واحـات جنـوب المغـرب، منهـا الدراعيـة والبرنـس الـذي هـو لبـاس العلمـاء والمغاربـة فـي بـلاد السـودان. تضـاف إلـى حرفـة الخياطـة حرفـة أخـرى ، مثـل صناعـة الخشـب التـي تنتـج أبوابـا وشـبابيك، مصنوعـة مثلمـا كانـت عليـه مثيلتهـا بالمغـرب.

مـن الصناعـات الأخـرى التـي طورهـا المغاربـة ببلـد السـودان خـلال القـرن السـادس عشـر: صناعـة السـفن، حيـث جـاء عنـد رينـي كايـي (Caille René) أن الرمـاة القاطنيـن بمدينـة كونـا (Kouna)الواقعـة فـي ناحيـة بأندياكـو (Bananygou)، يملكـون خـلال القـرن السـابع عشـر عـددا مهمـا مـن اليـد العاملـة ، سـخروها لصناعـة السـفن التـي تسـتعمل لنقـل البضائـع مـن تنبكـت إلـى جنـي. ولقـد كانـت هـذه الصناعـة تـدر عليهـم أرباحـا كثيـرة، يشـترون بهـا الأبقـار والماعـز والغنـم (René Caillié, 1966: 321 هـذا بالإضافـة إلـى مـواد أخـرى مثـل الفضـة التـي كانـت مـن بيـن صـادرات المغـرب نحـو بـلاد السـودان، وكان جـزء مـن هـذه المـادة يأتـي مـن جنـوب المغـرب، حيـث يجلـب مـن منجـم الفضـة بـبلاد هلالـة بالأطلـس الصغيـر ومنجـم عـوام مـا بيـن فـاس وتافلالـت (ابـن فضـل اللّه العمـاري،2019 : 176)

إجمـالا، كانـت الحـرف التـي طورهـا المغاربـة فـي بلاد السـودان متعـددة، تضـم: المـواد الغذائيـة والمعدنيـة والمنسـوجات الحرفيـة والمنسـوجات التـي كانـت تسـتورد مـن بلاد سـوس، حيـث كان تجـار المغـرب يحملـون الصناعـات النسـيجية مـرة فـي السـنة الـى مدينـة تنبكـت وولاتـا ، كمـا احتفظـت كثيـر مـن المصنوعـات بأسـمائها المغربيـة مثـل السوسـية نسـبة إلـى بلاد سـوس، اتخـذ منهـا العلمـاء العمامـات والمنصوريـات وملابـس الصـوف التـي كان المغاربـة يحرصـون علـى ارتدائهـا.

5 – تنظيم الأسواق وادخال لمكاييل والموازين:

لقـد حـاول المغاربـة المقيميـن بـبلاد السـودان إنعـاش التجـارة الخارجيـة والداخليـة بهـذا البلـد، لمـا كان لهـا مـن دور فـي مـد جسـور التواصـل بيـن المغـرب وبلاد السـودان و تمريـر العناصـر الثقافيـة بيـن الجهتيـن. حيـث حاولـوا رد الاعتبـار للمسـالك العابـرة للصحـراء التـي تمـر عبرهـا التجـارة والمراكـز التجاريـة التـي تقـف فيهـا القوافـل مـن أجـل الاسـتراحة والتـزود بالمـؤن والبحـث عـن الـكلأ والمـاء للجِمـال، بمـا فـي ذلـك المحطـات الصحراويـة مثـل ودان وشـنكيط وأروان وتشـيت وتنبكـت والجنـي وكاغـو أو كاو، وتنويـع المـواد التجاريـة المسـتوردة والمصـدرة. الشـيء الـذي أكسـبهم خبـرة رسـخوها فـي مختلـف المـدن التجاريـة السـودانية، أهلتهـم ليصبحـوا الأسـياد الحقيقييـن للتجـارة العابـرة للصحـراء

لـم تقتصـر هـذه التحـولات علـى التجـارة الصحراويـة فقـط، بـل شـملت التجـارة الداخليـة، والتـي عرفـت تقنيـات جديـدة فـي مجـال التبـادل التجـاري، شـملت تنظيـم الأسـواق والتعامـل النقـدي والمعـاملات وإدخـال مكاييـل وموازيـن ومقاييـس جديـدة لـم يعرفهـا هـذا البلـد مـن قبـل. فـي هـذا الشـأن ذكـر شـارل مونتـاي أن أسـواق السـودان أصبحـت تنعقـد بحضـور الأمنـاء والموثقيـن، كمـا هـو الأمـر بالمغـرب، أكثـر مـن ذلـك كانـت تفتـح باسـم أمنـاء الحـرف، كمـا أصبحـت لـكل بضاعـة رواقـا خاصـا بهـا.

لقـد شـملت هـذه التحـولات أسـواقا كثيـرة، مثـل أسـواق مدينـة الجينـي بمالـي، حيـث أصبحـت تتكـون خـلال القـرن التاسـع عشـر مـن عـدة أروقـة، تخصـص كل واحـدة منهـا لسـلعة معينـة ، مثـل الفخـار والأسـماك والملـح والمصنوعـات الجلديـة والحديديـة والنحاسـية والأثـواب والفلفـل الأسـود والأحمـر والفواكـه والكـولا والعـاج وريـش النعـام والصمـغ. ومثـل أسـواق مدينـة تنبكـت، التـي أقـام بهـا التجـار دكاكيـن وحوانيـت علـى الطريقـة المغربيـة، مجهـزة تجهيـزا جيـدا، بكثيـر مـن السـلع، بمـا فـي ذلـك السـتائر الزرقـاء المسـتوردة عنـد الطـوارق (300 :Félix du boit, 1897). ممـا شـكل تحـولا جوهريـا فـي التعامـل التجـاري بـبلاد السـودان، بفعـل الاحتـكاك بالمغاربـة، إدخـال مجموعـة مـن المكاييـل والموازيـن وأدوات القيـاس، قـدم شـار مونتانـي لائحـة مفصلـة حولهـا، نجملهـا فيمـا يأتـي:

- **الذراع**: كان يستعمل في قياس الأثواب والنسيج. ازدهرت تجارته بالسودان مع دخول المغاربة إلى هذا البلد

- **القالة:** يبلغ طولها 50 سنتمترا في جني وديا (Dia)، وجور (Diamara).
- **المد:** رغم اختلافه من منطقة إلى أخرى داخل السودان، وصل إلى هذا البلد حسب شارل مونتاي من قبل المغاربة منذ عدة قرون.
- **لكوري الكبير لجني**، يزن 165،5 غراما والكوري الصغير لجني، يزن 133،5غراما.
- **الأوقية:** تزن الواحدة ب 27.5غ، وتزن أوقيتان: 55غ.

هذا بالإضافة إلى أوزان أخرى مصنوعة من الزجاج، غير معروفة فيما سبق، وهي على شكل أسطوانات صغيرة ومختومة، يعتقد أنها مخصصة لوزن أشياء ثمينة مثل الذهب.

بصفة عامة، ساهم أصحاب الحرف والصنائع في تنمية وتطوير الاقتصاد السوداني والذي كان معظمهم قد قدم من المغرب، بوابة بلاد السودان من الشمال ، حيث عرف هذا البلد صناعات وحرف لم تكن معروفة من قبل، وكذا مزروعات جديدة تهم أنواعا مختلفة من الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر، كما تم تنظيم الزراعة وفق ما يعرف بالدورة الزراعية باختيار التربة الصالحة لكل نوع من النباتات. مما ساهم في تغيرت البنية الاقتصادية و الاجتماعية في هذا البلد لتضاهي المغرب من خلال حجم المبادلات التجارية في مختلف السلع التي كانت تصدر وتستورد من هذه المناطق

خلاصة

تناولنا فيما سبق نماذج من العناصر الامازيغية التي كانت تشد الرحال إلى بلاد السودان، ولاحظنا أن عددها كان كبيرا، قدمت من مختف جهات بالمغرب، خاصة الجهات الجنوبية، بحكم القرب الجغرافي، والخبرة الواسعة بالمسالك الصحراوية ونقط الماء والتجارة الصحراوية. كما حاولنا أيضا تسليط الضوء على مختلف المؤثرات الحضارية التي نقلها هؤلاء إلى أقطار بلاد السودان، بما في ذلك تلك المتعلقة بالمعمار وفنون الطبخ ومختلف الحرف التقليدية، وتناولنا كذلك بالدراسة التحولات التي شاهدتها التجارة المحلية في كثير من المدن السودانية، مثل تنبكت والجيني وأروان وكاغو، من خلال تنظيم الأسواق وادخال مكاييل وموازين ومقاييس جديدة ، كما تطرقنا إلى الجمالية التي أصبحت تتميز بها دُور التجارة في كثير من المدن. رغم ما أوردناه من المعلومات تبقى معرفتنا بهذا الموضوع شحيحة جدا، لا تعكس قدم التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء، والذي لازالت تشهد عليه الكثير من القرائن؛ مثل انصهار الدماء بين كثير من المغربة وأهل السودان، والمكانة التي ورثها هذا البلد لدى سكان أقطار إفريقيا. أمام هذا النقص من حيث ما كتب، .يبقى البحث الأثري والاركيولوجي هو الذي يعقد عليه الأمل لتدارك ما غفلته الكتابات التاريخية وللكشف عن الجوانب المختلفة التي طبع فيها الأمازيغ حضارة بلاد السودان، فقد أحبهم أهل هذا البلد وحكامه وأكرموا مثواهم واحسنوا منزلتهم وأعلوا قدرهم، واختصوهم بكل عناية ورعاية على مختلف فئاتهم. لكن مقابل ذلك، لا يجب أن ننسى بصمات أهل السودان في الحضارة الأمازيغية هي الأخرى، و التي تظهر في كل المجالات، مثل الغناء والرقص والألبسة والأدوات الموسيقية والتي لا تخلوا من أدوات إفريقية مثل الطبول، التي هي سيدة الميدان والآلة المثلى في كل موكب سلطاني وفي كل الأهازيج الشعبية الامازيغية خاصة أحواش وكناوة والغياطات؛ بل في أغلب الرقصات المنتشرة في جنوب المغرب التي تعد ذات أصول إفريقية. تلقت هذه الوسائل درجة قصوى من الترحيب والشغف من طرف القبائل الأمازيغية، كما أضفت إليها مؤثرات فنية نابعة من حضارتها، مثل فن الكناوي الذي تسرب إلى أغلب الألوان الموسيقية المغربية المنتشرة في كل من تارودانت ومراكش والصويرة والدقة المراكشية، التي لا يمكن أن تكون سوى ثمرة من ثمار التفاعل الثقافي والحضاري بين العناصر الأمازيغية والعناصر السوداء التي انتقلت إلى المغرب، و أخيرا رقصة أحواش تسينت ورقصة تاسكوين بورزازات، التي تستعمل فيها أدوات إفريقية كثيرة مثل: قرون الوعل والخناجر والمناجل وقرون البارود. كما يمكن ملاحظة مظاهر المؤثرات الإفريقية في حياة المغاربة وملابسهم، وحتى نغماتهم الموسيقية في مظهرها النغمي والإيقاعي والآلاتي؛ والتي تعكس العديد من مظاهر الأصول الأفريقية التي توحي بتقارب في جوانب اللغة أو الموسيقى أو الفن أو اللباس أو العمارة، مما يشير إلى تمازج حضاري بين المغرب وبلدان أفريقيا الغربية يشبه في حاضره ماضيه العريق.

الفهرس

1- Al-Maqri, Ahmed, Nafh al-tīb: min ghusn al-andalus al-ratīb wa-dhikr Wazīrihā Lisān al-Dīn, Alkhtib , édition ; dar ALmansour ; Rabat 1972.

2- Al Ouazzan, Hassan Ben Mohammed, La description de l'Afrique, 1ère édition, traduit par Muhammad Hajji et Muhammad Al-Akhdar, Beyrouth,1982.

3- Cissé, Bobacar, L'origine des Armas vivant en amont de Tombouctou. Notes africains. N 66-1955, PP 40-41

4- Dupus,Ykouba, Industries et Principales Professions des habitons de la Région de Tombouctou, Paris,1921.

5- Es –Sadi, Abderramman, Tarikh Es Soudan, Texte Arabe édité et traduit par Houdas, Paris 1898.

6- Félix du boit, Tombouctou La mystérieuse, Paris, 1897.

7- Graffe, Histoire de Djenné depuis les temps les plus reculés jusqu' au 12 avril 1893. Paris, 1904.

8- Ibn Abī Zar al-Fāsī, Al-Anīs al-mutrib bi-rawd al-qirtās fī ahbār mulūk al-Maġrib wa-ta'rīh madīnat Fās, Rabat 1964

9- Ibn Fadl Allāh al-Umarī, Masālik al-absār fī mamālik al-amsār, casa blanca, 1988.

10- Ibn Hawqal. Kitab surat al-ard, édition Société des génies de la pensée (nawaber elfikr), Caire,1997.

11- Monteil, Charles, Djenné, une cite soudanaise Métropole du Delta central du Niger, 1932, Paris.

12- René, Caillié, Journal d'un Voyage à Tombouctou et à Jenné dans l'Afrique Centrale, Paris, 1830, 3 vol.

مركز السياسات من أجل الجنوب الجديد

يعتبر «مركز السياسات من أجل الجنوب الجديد «مركزا مغربيا للدراسات، مهمته الإسهام في تطوير السياسات العمومية الاقتصادية منها والاجتماعية والدولية التي تواجه المغرب وباقي الدول الإفريقية بصفتها جزأ لا يتجزأ من الجنوب الشامل. وعلى هذا الأساس يعمل المركز على تطوير مفهوم "جنوب جديد" منفتح ومسؤول ومبادر؛ جنوب يصوغ سرديته الخاصة، ويبلور تصوراته ومنظوره لحوض المتوسط والجنوب الأطلسي، في إطار خال من أي مركب تجاه باقي العالم

كما يهدف المركز، من خلال أعماله، إلى مواكبة السياسات العمومية في إفريقيا، معتمدا في ذلك على خبراء دول الجنوب وتصوراتهم للتطورات الجيوسياسية التي تهم منطقتهم. ويتمثل هذا التموقع، القائم على تطوير الحوار والشراكات المختلفة، في تثمين الخبرة الإفريقية الكافلة بالإسهام في تشخيص للتحديات المطروحة وإيجاد السبل الناجعة لمعالجتها.

و لبلوغ هذا الهدف ، يجند "مركز السياسات من أجل الجنوب الجديد" عددا من الباحثين المرموقين يسهم في نشر أعمالهم. ويستثمر في شبكة من الشركاء ينتمون لمناطق مختلفة من العالم. كما ينظم المركز على مر السنة سلسلة من اللقاءات، مختلفة « "المستويات، أهمها: "المؤتمر الدولي للحوارات الأطلسية" ,"المؤتمر الإفريقي السنوي للسالم والأمن و"الندوة الاقتصادية لأفريقيا.

و وعيا منه بدور الشباب في تقوية الدفاع بالحوار بين الأجيال، يعمل المركز على بناء وتكوين مجموعة من الشباب عبر برنامج "القادة الرواد للحوارات الأطلسية" الذي يفوق 420 عضوا . ويشكل هذا البرنامج فضاء للتعاون والتواصل بين أفراد جيل جديد من صناع القرار ينتمون الى المرافق الحكومية ومجال الأعمال والمجتمع المدني

الآراء الواردة في هذا المنشور هي آراء الكاتب.

مركز السياسات من أجل الجنوب الجديد

العنوان : جامعة محمد السادس متعددة التقنيات، سلا-الرباط، المغرب.
البريد الإلكتروني : contact@policycenter. ma
الهاتف : 04 04 54 37 5 212+الفاكس : 54 31 71 37 5 212+
الموقع الإلكتروني : www. policycenter. ma

لمتابعتنا على مواقع التواصل الاجتماعي:

POLICY CENTER FOR THE NEW SOUTH
THINK • STIMULATE • BRIDGE